

الفصل الثاني

تكوين إقبال الفكري والثقافي

obeikandi.com

تكوين إقبال الفكري والثقافي

إن تكوين البنية الفكرية والثقافية للإنسان في الحياة المعاصرة أمر معقد جداً، إذ تتداخل مؤثرات كثيرة فيها خلال عمر الإنسان، والأمر مختلف في الحياة الأولى، إذ إن المؤثرات معدودة، فهي لا تتعدى البيت والمعلم والكتاب والمسجد.

أما في الوقت الحاضر، فيشترك مع البيت في تكوين فكر الإنسان وثقافته وتربيته، وسائل التعليم والتربية، ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، المتعددة في عقيدتها، وفكرها، وأهدافها، فضلاً عن تعدد البيئات الثقافية التي ينتقل إليها الإنسان، وذلك لتيسر وسائل الانتقال السريعة، التي تجوب الآفاق خلال مدة قصيرة، كل ذلك يؤثر في بنية فكر الإنسان وثقافته. أما الصياغة النهائية لهذه البنية فتتكمّل خلال عمر الإنسان، وحسب المؤثرات الأولى في حياته. من خلال هذه النظرة نمعن النظر في شخصية إقبال الفكرية والثقافية فنجد قد نشأ في بيت علم وتصوف، في بيئة صغيرة محدودة، وتلقى علومه الأولى للشريعة الإسلامية والقرآن والحديث في مدرسة أولية، كان لمعلمها أثره الكبير في توجيهه طوال عمره، ثم انتقل إلى لاهور المدينة الكبيرة بالنسبة لقريته الصغيرة، وتلقى علومه الجامعية فيها، وكان للدراسات الفلسفية واللغوية أثرها الفاعل فيه، ثم انتقل إلى إنكلترا حيث درس القانون...

ثم إلى ألمانيا حيث نال شهادة عالية في الفلسفة، وخلال دراسته في الخارج التقى بالفيلسوف الفرنسي "برغسون" وغيره من الفلاسفة الغربيين، هذه البيئات المختلفة فكرياً وثقافياً، كان لها الأثر الفاعل في بنيته الفكرية والثقافية.

ومن هنا يمكننا أن نشبه شخصية إقبال بالنهر المتدفق الذي تصب فيه جداول متعددة مختلفة المذاق والصفاء، ولكنها لم تكن لتؤثر في تغيير مجراه أو عدوبته. والفكر الغربي - كما سنرى خلال هذا البحث - أثر في أسلوب تفكير إقبال وفي منهجه العقلي، فجاء بنتائج لا يوافقها عليها العلماء المسلمون، وإن كان هذا لا ينقص من قدره وعبقريته، فكل إنسان معرض لما تعرض له، وكما قال الإمام مالك^(١) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر» (يقصد رسول الله ﷺ). ويمكننا إيجاز مصادر تفكير إقبال بما يأتي:

أولاً: المصدر الإسلامي، والذي يتفرع إلى:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- السنة النبوية الشريفة بما تحويه من حديث وسيرة.
- ٣- سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين.
- ٤- الفلسفة الإسلامية والفكر الصوفي.
- ٥- الأدب الإسلامي عامة والعربي خاصة.

ثانياً: المصدر الغربي والذي يتفرع إلى:

- ١- الفلسفة والفكر الغربي عامة.
- ٢- فلسفة نيتشه الألماني.

(١) الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أنس، جده مالك من كبار التابعين ووالد جده أنس رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ. صاحب كتاب الموطأ في الحديث - وهو أول كتب الحديث - وضعت فيه الأحاديث مصنفة ومبوبة، والإمام مالك أحد أصحاب المذاهب الأربعة، ولد سنة ٩٥ هـ في المدينة المنورة، وتوفي فيها سنة ١٧٩ هـ، ودفن في البقيع.

٢- فلسفة ليبنتز الألماني.

٤- فكر جوته الألماني وأدبه.

٥- فلسفة برغسون الفرنسي.

أولاً: المصدر الإسلامي:

ويعد هذا المصدر أساس البناء الثقافي والفكري لإقبال:

١- القرآن الكريم:

وتأثير القرآن في فكر إقبال وثقافته لا ريب فيه، بل يعد منبع أفكاره وفلسفته الذاتية، وإبداعه الشعري وسر بلاغته، وهذا ما عبر عنه إقبال حين سألته العالم الجليل سليمان الندوي أثناء زيارته "لكابل" بدعوة من "نادر شاه" ملك الأفغان عن سر بلاغته التي اكتشف بها أسرار الدين ومعالم الحق، ووصل إلى أساليب من التعبير قل أن يصل إليها أهل الفقه والعلم وغيرهم من القائمين على أمر الهداية والتوجيه؟

فقال إقبال: «يرجع الفضل في كل ما أنشأته من شعر أو نثر، إلى توجيهات أبي رزق الله، فقد كنت تعودت أن أقرأ القرآن. بعد صلاة الصبح، وكان والدي يراني فيسألني: ماذا أصنع؟ فأجيبه: بأني أقرأ القرآن وظل على ذلك ثلاث سنوات متتالية يسألني سؤاله، فأجيبه، وفي ذات صباح قلت بعد إجابتي: ولكن لماذا تسألني عن شيء أنت بجوابه عليم؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك: أقرأ القرآن كأنه نزل عليك، ومنذ ذلك اليوم بدأت أنفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن بحره ما نظمت»^(١).

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) - ص ٨.

وفي زيارة إقبال لأفغانستان قدّم للملك "نادر شاه" نسخة من القرآن قائلًا: «إنّ هذا الكتاب رأس مال أهل الحق، في ضميره الحياة، وفيه نهاية كل بداية، وبقوته كان علي، فاتح خيبر». فبكى الملك وقال: «لقد أتى على "نادر خان" زمان، وماله أنيس سوى القرآن، وهو الذي فتحت قوته كل باب».^(١)

ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي: «ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه، ويجوب في آفاقه، فيخرج بعلم جديد، وإيمان جديد، وإشراق جديد، وقوة جديدة، وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاقه. ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد، والعلم الأبدي، وأساس السعادة، ومفتاح الأفضال المعقدة، وجواب الأسئلة المحيرة، وأنه دستور الحياة ونبراس الظلمات. ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب، وفهمه ودراسته، والاهتداء به في مشكلات العصر، واستفتائه في أزمت المدنية، وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ويضع آخرين. يقول في مقطوعة شعرية:

«إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة فتقرأ عليك سورة (يس) لتموت بسهولة، فوا عجباً! لقد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة».^(٢)

(١) روائع إقبال للندوي (من ديوان مثوي مسافر) - (مرجع سابق).

(٢) المرجع السابق - ص ٤٢-٤٣ والمقطوعة الشعرية من ديوان أرمغان حجاز.

هذه هي مكانة القرآن عند إقبال، حتى وصف بالشاعر القرآني؛ وذلك لسببين: أولهما: أنه استلهم فلسفته كلها من القرآن الكريم، وقد أشار المودودي رحمه الله إلى ذلك بقوله: «إن كل ما يفكر فيه إقبال، كان يفكر بعقل القرآن، وكل ما كان يراه، كان يراه بعين القرآن»^(١).

وفلسفة إقبال حول الذات الإنسانية، استبطنها من القرآن الكريم، إذ إن كثيراً من الآيات تذكر الذات الإنسانية في كينونتها وحريتها، وثوابها، وعقابها، ونموها الروحي والعقلي. يقول إقبال^(٢):

«هناك أمور ثلاثة واضحة كل الوضوح في القرآن:

١- أن الإنسان قد اصطفاه الله ﴿ثُمَّ أَحْبَبْنَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (١٢٢) (طه).

٢- أن الإنسان بالرغم من أخطائه جميعاً أريد أن يكون خليفة الله في أرضه. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠). ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ حَلِيفًا﴾ (الأنعام: ١٦٥).

٣- أن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذتبعها على عاتقه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) (الأحزاب).

وفلسفة إقبال في الإنسان الكامل أخذها من القرآن.

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

(١) مقدمة محمد إقبال وديوان أرمغان حجاز- (مرجع سابق) - ص ٢١.

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) - ص ١٠٩.

وقال تعالى: ﴿... إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ (المعارج).

وقد وصف الله الإنسان الكامل بكلمات قليلة بليغة: ﴿يَكْتُمُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ ﴿٥٤﴾﴾ (المائدة).

وكذلك فإن مراحل تربية الذات عند إقبال استلهمها من القرآن وهي: (الطاعة، وضبط النفس، والنيابة الإلهية) ^(١)

فآيات الطاعة والأمر بها في القرآن تزيد على إحدى وخمسين آية، وكذلك آيات ضبط النفس وقيادتها والالتزام بالشرع لتكسب الحرية والشجاعة وعدم الخوف إلا من الله كثيرة في القرآن.

أما كون الإنسان خليفة في الأرض فتمثلها الآيات التي ذكرت أنفاً من سورتي البقرة ٣٠، والأنعام ١٦٥.

وفي ديوان «رموز بي خودي» "أي رموز نفي الذات، يرى إقبال أن الذات يمكن أن تنمو مع بقية الذوات في داخل المجتمع.. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

أما أولئك الذين يزعمون أن فلسفة إقبال مأخوذة من الفلسفة الغربية، فإقبال يدعو لهم بالهداية، ويبين لهم أن القرآن هو مصدره الوحيد في كل ما قاله، وقولهم هذا يدل على جهلهم بالإسلام ونظامه الذي يعم الحياة

(١) ارجع إلى ديوان الأسرار والرموز - تعريب عبد الوهاب عزام - ص ٢٧.

كلها، يقول إقبال في "ديوان الأسرار والرموز" حسب ترجمة عزام^(١):

قيل: أهدى سحرَ أوربا لنا
وبقانونِ الفِرْنَجِ أَفْتِنَا^(٢)
إهدِ للحقِّ الذي قد أفكا ...
الذي يجهلُ ما قد ملكا^(٣)
إن يكنْ قلبي غوى لا يبصرُ
أو سوى القرآنِ لفظي يُضْمِرُ
أنت يا مَنْ نورُهُ صبحُ العصورِ
أنت يا عالمَ أسرارِ الصدورِ
اهتكنْ أسرارَ فكري وافضحنْ
طهرنْ من شوكتي روضَ الزمنِ
وحياتي أقطعْ لأجلِ الأمةِ
واكفينْ شرِّي أهلَ الملةِ

أما السبب الثاني الذي يدعونا إلى وصف إقبال بالشاعر القرآني، فهو كثرة ما ورد في شعره من المصطلحات، والكلمات، والقصاص القرآنية مثل:

ضرب كليم، شرار بولهي، بانك إسرافيل، لاة، مناة، موسى، فرعون، الطور، يوم النشور، إبراهيم نظر، لا تحزنوا، نوح، قلم، لا إله إلا الله، وغير ذلك. وأيضاً كثرة ما ضمنه إقبال في شعره من آيات القرآن الكريم.

وإن تضمين إقبال لآيات القرآن الكريم وكلماته يدل على عمق فهم الشاعر لكتاب الله، الذي كان يتلوه آناء الليل وأطراف النهار مع التأمل في آياته، واستشعار عظمة الله عز وجل، ونحن في هذه العجالة نستعرض

(١) المرجع السابق - ص ١٥١.

(٢) القانون: آلة موسيقية، وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع.

(٣) دعاء إلى الله أن يهدي الذين يقولون: إن فلسفة إقبال مأخوذة من الغرب.

ديواناً واحداً من دواوينه، وآراءه في الحياة والكون والإنسان، لنجد كيف تتداخل كلمات الله بشكل رائع مع شعر إقبال فيتحول شعره إلى كلمات كأنها قيس من الذكر الحكيم..

فتراه يشيد بالأمة المسلمة، وبالضرد المسلم، الذي هو في نظره "الإنسان الكامل"، مخاطباً الرسول الكريم ﷺ ومشيراً إلى الآية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣).

والى الآيتين الكريمتين: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (٢) ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٣) (النجم).

أنت في الأيام نورٌ وبصرٌ شاهدٌ أنت على كل البشر
قوله ما فيه نطقٌ عن هوى صادق، ما ضل يوماً أو غوى^(١)

ويشير إلى الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣) مع الدعوة إلى نشر هذا الدين الكامل، الذي هو كالشمس المشرقة التي تبعد الظلام، يقول إقبال:

في ظلام الدهرِ أشرقَ للملا وانشرنَ حقاً عليكِ اكتملا^(٢)

وأن أبناء الأمة الإسلامية أحرار بإيمانهم منذ أن كانوا في عالم الذر مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ (الأعراف: ١٧٢).

(١) المرجع السابق - ص ١٢٨.

(٢) المرجع السابق.

يقول إقبال:

نسلها كالسَّرْوِ حرٌّ قد علا عهدها أحمدٌ من (قالوا بلى) (١)

ونجد إقبالا كثيراً ما يخاطب المسلم الحق، الذي آمن بربه وعرفه حق المعرفة، يطلب منه اليقظة والوعي، والصحون من نومه الطويل، وعدم الخوف، لأن الله تعالى قال: ﴿أَلَا إِنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) (يونس).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) (آل عمران).

قوة الإيمان تحيي فاعلمن ورد "لا خوفٌ عليهم" فاقرآن (٢)
ورده "لا تحزنوا" في المأزق «أنتمُ الأعْلونُ" تاجُ المشرقِ

وأن الأمة المسلمة لا تخاف الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٣) (الإنسان).

لا تخاف الموت هذي الأمة "نحن نزلنا" لديها حجة (٣)

ويشير إقبال إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) (البينة).

داعياً المسلم إلى التمسك بالقرآن فإنه سبيل الحرية، ولعله يشير بطرف

(٣) المرجع السابق - ص ٩٩.

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق - ص ١٠٨.

خفي إلى فهم هذه الآية التي تشير إلى أهل الكتاب، وإدراك مخططاتهم ضد الإسلام والمسلمين.

يقول إقبال:

«لَمْ يَكُنْ» أَمْسِكْ بِهَا وَاشْدُدْ يَدَا لَتَرَى فِي النَّاسِ حُرّاً أَوْحَدًا^(١)

وفي مكان آخر نجد إقبالاً يوجه كلامه إلى المسلمين في الوقت الحاضر وقد ظللهم الغم والحزن، داعياً لهم إلى الابتعاد عن الغم والحزن مادام الله معهم مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْصُرْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَعْنَاكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

وقد نزلت الآية الكريمة على الرسول ﷺ بينما كان هو وصاحبه الصديق في غار ثور أثناء الهجرة إلى المدينة، وهما مطاردان من قبل كفار قريش.

يقول إقبال:

يا سَجِينَ الْغَمِّ أَبْصِرْ وَاسْمِعِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ "لَا تَحْزَنْ" وَعِ ذَلِكَ النَّصْحُ سَرَى فِي قَلْبِهِ فَعَدَا الصَّدِيقُ صَدِيقاً بِهِ^(٢)

ويدعو إقبال المسلمين إلى عدم القنوط لأنه من صفات الكفار، وأن طريق القنوط يؤدي إلى الموت:

(١) المرجع السابق - ص ١٤٨.

(٢) المرجع السابق، و:ع: فعل أمر، ماضيه معتل الأول والآخر (وعى)، يكون الأمر منه على حرف

واحد (ع).

عُدَّة الموتِ قنوطٌ محببٌ والحياةُ الحقُّ أنْ "لاتقنطوا" (١)

يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر: ٥٣).

ونراه يبعث الأمل في نفوس المسلمين، بأن نور الله عز وجل لن يطفئه
عدو من الأعداء مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨) (الصف).

ذلك المصباح أنى يطفأً قال ربي عالماً "أن يطفئوا" (٢)

ويلتفت إقبال إلى المسلم المؤمن، يحثه إلى النظر في آيات الله في السماء
والأرض والآفاق، ليزداد إيمانه، وتزداد معرفته.

أيها المقصود من أمرٍ "انظروا" كيف في آفاقها لا تنظر (٣)

يشير إلى قوله تعالى: ﴿سَأُزَيِّجُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٣) (فصلت: ٥٢).

ويتمنى الشاعر عودة ذلك المسلم البصير، المصدق بما أنزل على
نبيه، لا ريب في قلبه ولا انحراف:

لَوْ يَعُودُ الْيَوْمَ فِينَا ذُو النَّظَرِ مَنْ بِهِ تَصْدِيقٌ "ما زاغ البصر" (٤)

(١) (٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق - ص ٨٩، ٩٠، ١٠٩، ١٢١.

(٤) المرجع السابق - ص ١٤٨.

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ (١٧) (النجم).

ويلتفت شاعرنا العظيم إلى أمته الإسلامية فيراها مقطعة الأوصال مختلفة الآراء، مبتعدة عن الإسلام، سريعة السير إلى دمارها.

أمرُكُمْ قَطَعْتُمْ فَهَوُ "زبر" مُسرعي السيرِ إلى شيءٍ نُكِرَ^(١)

مضمناً قوله تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ ﴾ (٥٣) (المؤمنون).

وقوله تعالى: ﴿ فَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكْرٍ ﴾ (٦) (القمر).

وممن أسهم في تفريق الأمة أولئك الذين قدسوا الأوطان، وعبدوها من دون الله.. وكذلك دعاة الوطنية والإقليمية والقومية المتعصبون، كل أولئك انصرفوا عن جادة الإسلام، وطلبوا الجنة بطريق النار، فأنى لهم الوصول إليها؟! فكانت نتيجة دعوتهم الضعف، والذل والدمار، يقول إقبال:

قَدَّسُوا الْأَوْطَانَ إِعْجَابًا بِهَا قَسَّمُوا الْإِنْسَانَ أُسْرَابًا بِهَا
طَلَبُوا الْجَنَّةَ فِي (بَيْسِ الْقَرَارِ) «فَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ»^(٢)

واقبال يستحضر قوله تعالى: ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَيْسَ الْقَرَارِ ﴾ (٢٩) (إبراهيم).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (٢٨) (إبراهيم).

(١) المرجع السابق - ص ١١٤.

(٢) المرجع السابق - ص ١٠٥.

والقرآن الكريم هو المنقذ من هذا الواقع المر للإسلام والمسلمين، وهو حبل الله المتين، من تمسك به نجا، ومن أفلته وانحرف عنه هلك.. تلاه وبلغه رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين:

نحن طينٌ وهو قلبٌ لا جرمَ هو "حبلُ الله" مَنْ شَاءَ اعْتَصَمَ (١)
 ذا بلاغٌ آخرٌ للمُرْسَلِينَ قد تلاه "رحمةٌ للعالمين" (٢)

مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء). وهكذا أعطانا إقبال الدليل الصادق على تأثير القرآن في فكره وثقافته وفلسفته كلها، مما لا يترك مجالاً لريب مستريب أبداً.

٢ - السنة النبوية:

لقد ذكرنا عند دراستنا شخصية محمد إقبال، وإيمانه العميق، مقدار حبه للمصطفى ﷺ، هذا الحب الذي أخذ بشغاف قلبه وملاً فؤاده حتى كاد لا يتسع إلا له، وقد أتبع هذا الحب طاعته واتباع نهجه، والسير على هديه..

وكما أن إقبالاً أخذ فلسفته من القرآن الكريم فكذلك اقتبس كثيراً من أفكاره من السنة النبوية الشريفة، نورد منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) المرجع السابق - ص ١١٥.

(٢) المرجع السابق - ص ١١١.

١- نظرة إقبال إلى الزمان.

يقول إقبال في كتابه تجديد التفكير الديني في الإسلام:

«وهذا الزمان السابح في صمت يبدو لأنظارنا البشرية في صورة تقلب الليل والنهار، يعده القرآن إحدى آيات الله الكبرى ﴿يَقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٤٤) (النور).

وهذا هو السبب في أن النبي قال: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»^(١).

٢- ومن مراحل تربية الذات عند إقبال الطاعة والتزام أحكام الشرع واتباع الرسول ﷺ المبين لأحكام الله..

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) (النور).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤) (النحل).

يقول إقبال في ديوان الأسرار والرموز:

ارجعن يا حُرُّ دستورٍ قديمٍ زيننِ رجلَكِ بالقيدِ الوسيمِ
شدةً في شرعنا لا تشكونَ وحدودَ المصطفى لا تعدونَ^(٢)

(١) محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره (مرجع سابق) - ص ٧٩، وانظر مقدمة ديوان الأسرار

والرموز - ص ١٦. والحديث رواه البخاري ومسلم.

(٢) الأسرار والرموز - لعزام - ص ٢٨.

وفي الديوان نفسه يبين الشاعر أن من مقومات الأمة الإسلامية اتصالها الدائم بنبيها محمد ﷺ، يقول في رسالته إلى نيكلسون: «إن في حياة الرسول ﷺ أسوة حسنة للمسلم، فقد كانت حياته خير مثال للسعي الدائم، فقد كانت حياته كلها صورة للعمل»^(١).

٣- سيرة الصحابة والتابعين وأبطال الإسلام على مر التاريخ؛

وإن سير الصحابة والتابعين، ومن تبعهم من رجال الإسلام، نماذج عظيمة أهل للقدوة عند إقبال: لذلك نراه يستشهد ببطولاتهم وشجاعتهم وزهدهم، وتقواهم، وجهادهم باللسان والسنان، ويذكرهم بأسمائهم في شعره، وهو يؤكد أن في سيرهم معيناً لا ينضب للقدوة الحسنة، ولإعادة مجد الإسلام من جديد.

فمن الصحابة الذين يردد أسماءهم في شعره: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وبلال، وسلمان، وأبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، وأبو أيوب الأنصاري، والحسين، وجعفر، ويذكر من غيرهم: الإمام مالكاً، والرازي، وهارون الرشيد، وأبا يزيد البسطامي، وكثيراً غيرهم.

ونذكر بعض الأبيات الشعرية التي يذكر فيها إقبال هؤلاء الرجال الذين بنوا حضارة الإسلام، بإيمانهم وجهادهم مهيباً بالمسلمين الاقتداء بهم.

يقول إقبال حسب ترجمة الصاوي شعلان^(٢):

لا تَسَلَّنِي الآنَ عن ثورتهِ إنها ميدانٌ بَدْرٍ وْحُنَيْنٍ^(٣)

(١) مقدمة ديوان الأسرار والرموز - ص ٢٨.

(٢) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي - ص ٢٥.

(٣) إشارة إلى غزوة بدر (سنة ٢هـ)، وغزوة حنين (سنة ٨هـ).

في أبي بكرٍ وفي صاحبه في عليٍّ ثمَّ في صبرِ الحسينِ^(١)
سيفُ أيوبَ وتقوى بايزيدَ فيهما مفتاحُ كنزِ العالمينِ^(٢)

ويخاطب إقبال المرأة المسلمة، ذاكراً عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ديوان «أرمغان حجاز» حسب ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم نثراً^(٣):

أظْهَرَ الأَسْحَارَ من ليالينا،
وأَقْرَنَ بالقرآنِ أهلَ النظرِ.
إنك تعرفن أن حرارة تلاوتك
قد غيرت تقدير عمر^(٤)

وفي موضع آخر يذكر إقبال: أبا بكر وعمر في وحدة العقيدة التي هي من أهم مقومات الأمة:

بَيَّضَ التَّوْحِيدُ مَسْوَدَ البَشَرِ فأبو بكر مؤاخٍ لِعَمَرَ
وحدة القلبِ قوامُ الأُمَّةِ أشرقت سيناءُ من ذي الجَلْوَةِ^(٥)

(١) وفي صاحبه: أي عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أيوب: أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه. وبايزيد: أبو يزيد البسطامي، توفي سنة ٢٠٦ هـ (انظر الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي ص ٣٥).

(٣) ديوان أرمغان حجاز - ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم - ص ٢٢٠.

(٤) إشارة إلى قصة إسلام عمر رضي الله عنه.. الذي ذهب إلى أخته غاضباً من إسلامها، ولكنه أسلم بعد أن سمع القرآن في بيتها - انظر السيرة النبوية لابن هشام ١ - ص ٣٦٤.

(٥) ديوان الأسرار والرموز (مرجع سابق) ص ٨٨. سيناء: شبه جزيرة سيناء في مصر - وهي إشارة إلى فتح مصر وانتشار الإسلام فيها.

ويذكر إقبال أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بطل فتوحات الشام، وعلي بن أبي طالب وخادمه قتيلاً وأبا ذر الغفاري وبلالاً الحبشي رضي الله عنه، وقد ساوى الإسلام بينهم:

وعبيدُ قائدِ العربِ الأبي عزمُهُ في الحربِ عن جيشِ غنيٍّ
قالَ يا قومُ: ألسنا مسلمينَ نعمةً واحدةً في العالمينَ
من أبي ذرٍّ علتُ أو حيدرٍ من بلالٍ سُمِعَتْ أو قَتَبِرِ (١)

ويعود إقبال لذكر علي (ذي الفقار)، وكذلك خالد بن الوليد (سيف الله) بطل اليرموك (٢) مذكراً للمسلمين ببطولاتهم في الشام.

يا مَنْ الجَنَّةِ في أعطافِهِ ذو الفقارِ العَضْبِ مِنْ أسلافِهِ (٣)
خالداً صاحِبَتْ يَفْزِي الفيلقا وعلى الشامِ نثرتِ الشفقا (٤)

ويدعو إقبال الله عز وجل أن يمنحه عشق سلمان وبلال، وأن لا يحجب عنه الحب الصادق الذي منحه لصحابته:

عن فقيرٍ لا تحجَّبَ ذا الجمالِ عشقَ سَلْمَانَ أَحَبُّنا، مثلَ بلالٍ (٥)

(١) الأسرار والرموز لعزام - ص ١٠٠.

(٢) اليرموك: نهر في الأردن وقعت حوله معركة فاصلة بين المسلمين والروم عام ٢٣هـ. وانتصر فيها المسلمون.

(٣) ذو الفقار (يقصد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو اسم سيفه) والعضب، القاطع البتار. الفيلق: الجيش.

(٤) شام في الفارسية بمعنى الليل، والكلمة فيها تورية معناها القريب بلاد الشام. والشفق لغة: الحمرة الباقية بعد مغيب الشمس قبل حلول الظلام، ولكن الشعوب الإسلامية غير العربية تستخدم اللفظة العربية (الشفق) بمعنى الفجر الذي يزول الظلام بطلوعه.

(٥) الأسرار والرموز - ص ٦٨.

ويذكر إقبال جعفر بن أبي طالب، وأبا بكر الرازي^(١)، ويدعو إلى اتباع الحق الذي جاء به:

فِكْرُ الرَّازِي وَنَجْوَى جَعْفَرٍ أَيْنَ؟ وَالْعُرْبُ هُدَاةُ الْبَشَرِ^(٢)
وبهذا الحق فاشدّد قلبك واتبِعِ الْعُرْبَ تُصِبَ شِرْعَتَكَ

وفي أبيات أخرى يذكر إقبال مجد الإسلام في العصور الزاهرة أيام الخليفة هارون الرشيد وموقفه من الإمام مالك إمام دار الهجرة:

قَائِدُ الْإِسْلَامِ هَارُونُ الرَّشِيدِ مَنْ سَقَى نَفْقُورَ مَنْ مَاءِ الْحَدِيدِ
قَالَ: يَا مَالِكُ مَوْلَى الْأُمَّةِ أَنْتَ يَا رَوْنَقَ وَجْهِ الْمَلَّةِ
أَنْتَ يَا بَلْبِلَ فَرْدُوسِ الْحَدِيثِ إِنِّي أَرْغَبُ فِي دَرَسِ الْحَدِيثِ
حَبِذَا زَهْرَةَ أَيَّامِ الْعِرَاقِ حَبِذَا حُسْنُ بِهِ الْأَعْيُنُ رَاقِ
لِي فِي يَثْرَبَ حُبٌّ وَاشْتِيَاقٌ أَيْنَ مِنْ لَيْلِي بِهَا صَبْحُ الْعِرَاقِ؟^(٣)

وذكر إقبال الصحابة ورجال الإسلام على مر التاريخ يدل دلالة عميقة على مقدار تأثيره ببطولاتهم وجهادهم، وهو يسعى من نقل هذا الأثر إلى تحريك المسلم وإيقاظه، ودفع النوم الطويل عنه، ليعيد مجده وسؤدده على الأمم كما كان من قبل.

(١) أبو بكر الرازي (محمد بن زكريا)، عالم وطبيب مسلم (٢٥١-٣١٣هـ) (٨٦٥-٩٢٥م)

انظر ترجمته في الأعلام للزركلي.

(٢) المرجع السابق - ص ١١٥.

(٣) المرجع السابق - ص ١٤٣ - ويثرب: اسم المدينة المنورة قبل الهجرة.

٤ - الفلسفة الإسلامية والفكر الصوفي؛

درس إقبال الفلسفة الإسلامية، كما هي عند الفلاسفة المسلمين أمثال الكندي^(١) والرازي والفارابي^(٢) وغيرهم، وكذلك اطلع على المدارس الكلامية كما هي عند علماء الكلام من الأشاعرة^(٣) والمعتزلة^(٤)، فضلاً عن تعمقه بالفكر الصوفي وأصوله، وخرج من ذلك كله بإيمان عميق بأن القرآن الكريم ومنهجه هو أساس الفكر الإسلامي، وأن الفلسفة اليونانية أثرت بشكل كبير في فكر من يُدعون بفلاسفة الإسلام..

يقول إقبال: «إن الفلسفة اليونانية - على ما نعرف جميعاً - كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام، ولكن التدقيق في دراسة القرآن الكريم وفي تمحيص مقالات المتكلمين على اختلاف مدارسهم التي نشأت مستلهمة الفكر اليوناني يكشفان عن حقيقة بارزة هي أن الفلسفة اليونانية مع أنها وسعت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام، فإنها غشت على أبصارهم في فهم القرآن»^(٥).

(١) الكندي: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي - توفي نحو ٢٦٠هـ (٨٧٣م) في الكوفة، ولقب بفيلسوف العرب. (انظر الأعلام للزركلي).

(٢) الفارابي: أبو نصر محمد بن محمد الفارابي يعرف بالمعلم الثاني بعد أرسطو - شرح فلسفة أفلاطون وأرسطو ودرس الرياضيات والموسيقى. ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة ٢٦٠هـ وتوفي بدمشق عام ٣٢٩هـ (٨٧٤-٩٥٠م). (انظر الأعلام للزركلي).

(٣) الأشاعرة: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري ٢٦٠ - ٣٢٤ هـ (مؤسس علم الكلام المعبر عن أهل السنة في عصره...).

(٤) أصحاب وأصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وهناك آراء مختلفة عن سبب هذه التسمية.

(٥) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) - ص ٨.

ويستعرض إقبال في كتابه " تجديد التفكير الديني في الإسلام "، آراء الإمام الغزالي^(١) في مراحل التفكير الأولى، وقارن بينه وبين كمنط الفيلسوف الألماني، وكذلك عرض آراء ابن رشد الأندلسي^(٢) وتأثره بأرسطو الفيلسوف اليوناني، ودرس الأشاعرة والمعتزلة، وافتقار إدراكهم للدين على أنه مجموعة من عقائد، متجاهلين أنه حقيقة حيوية، فلم يحفلوا بأساليب إدراك الحقيقة إذا كانت لا تقبل التصور، وأرجعوا الدين إلى نسق من المعاني المنطقية.

وإقبال في دراسته للمدارس الفلسفية الإسلامية كان ناقداً أكثر منه متأثراً بأي منهم، مدافعاً عن مفاهيم القرآن والسنة.

أما التصوف والفكر الصوفي عامة، فقد كان لهما أثر كبير في فكر محمد إقبال في أدوار حياته الأولى، إذ إنه نشأ في بيت صوفي، وترعرع على الأفكار الصوفية، إلا أنه عدل عنها بعد أن وجدها مخالفة لأصول الإسلام.

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام في مقدمة ديوان «الأسرار والرموز» الذي ترجمه إلى العربية شعراً.

«رأى الصوفية في الذاتية أمراً نكراً، إذ كان التصوف بزعمهم يقصد إلى إذلال النفس وإماتتها حتى تؤهل للفناء في الله، وزاد الصوفية ثورة على شاعر الحياة والقوة، أنه عمد إلى إمام من أئمتهم وشاعر من أعظم

(١) الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ). من أهل طوس بخراسان، لقب بحجة الإسلام ورد على الفلاسفة في كتابه: تهافت الفلاسفة، زار دمشق، وألف إحياء علوم الدين، وتوفي بطوس (انظر ترجمته في الأعلام للزركلي).

(٢) ابن رشد: أبو الوليد محمد بن رشد، ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ، وكان فقيهاً وطبيباً وفيلسوفاً - شرح فلسفة أرسطو، وكان له أثر كبير في الفلسفة الأوروبية. ودافع عن الفلسفة، ورد على الغزالي في كتابه «تهافت التهافت».

شعرائهم «لسان الغيب حافظ الشيرازي»^(١) فحط من شأنه، وغض من طريقته، ونهى الناس عنها، وحذرهم منها».

وكذلك خالف إقبال محيي الدين بن عربي^(٢) الملقب بالشيخ الأكبر، وغلطه وقال: إن آراءه غير إسلامية.

وعندما نشر إقبال ديوانه "أسرار خودي" أي أسرار الذات، وتعرضه لحافظ الشيرازي بالنقد، هاجمه الصوفية بشدة، وأجاب إقبال المعترضين، منها قوله في رسالة إلى الشيخ "حسن نظامي الدهلوي":

«إني بفطرتي وتربيتي أنزع إلى التصوف، وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعاً إليه، فإن هذه الفلسفة في جملتها تنزع إلى وحدة الوجود، ولكن تدبر القرآن المجيد ومطالعة تاريخ الإسلام بإمعان عرفاني غلطي، وبالقرآن عدلت عن أفكارى الأولى، وجاهدت ميلي الفطري، وحدثت عن طريق آبائي.

إن الرهبانية ظهرت في كل أمة وعملت لإبطال الشريعة والقانون، والإسلام في حقيقته هو دعوة إلى مخالفة الرهبانية.

والتصوف الذي شاع بين المسلمين - أعني التصوف العجمي - أخذ من رهبانية كل أمة، وجهد أن يجذب إليه كل نحلة، حتى القرمطية^(٣) التي قصدت إلى التحلل من الأحكام الشرعية.

(١) حافظ الشيرازي - الشاعر الصوفي الفارسي المعروف.

(٢) ولد في "مرسية" بالأندلس سنة ٥٦١هـ، وتوفي سنة ٦٢٨هـ، وله مقام في دمشق، نادي بوحدة الوجود المخالفة للعقيدة الإسلامية.

(٣) القرامطة: تنسب إلى حمدان قرمط - ظهرت هذه الدعوة عام ٢٧٨هـ (ارجع إلى فضائح الباطنية للغزالي - القاهرة ١٩٦٤م).

إن حالة السُّكْر^(١) (في اصطلاح الصوفية) تنافى الإسلام وقوانين الحياة، وحالة الصحو هي الإسلام، توافق قوانين الحياة، وإنما قصد الرسول ﷺ إنشاء أمة صاحبة، ولهذا نجد في صحابة الرسول ﷺ الصديق والفروق، ولا نجد حافظ الشيرازي.

ويقول في رسالة أخرى إلى أحد المعترضين:

«الحق أن التماس معاني باطنة في قانون أمة؛ هو مسخ لهذا القانون كما يعلم من سيرة القرامطة، ولا يختار هذه الطريقة إلا أمة في نظرتها الخنوع والذلة. وفي شعراء العجم جماعة في طباعهم الميل إلى الإباحة، ولقد افتن هؤلاء في إبطال شرائع الإسلام بأساليب عجيبه خداعة».

ويقول في رسالة أخرى إلى هذا المعترض نفسه:

«كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي، وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل أنظارهم وتجمل الاستكانة في أعينها، وتركن إلى ترك الدنيا، وفي هذا الترك تخفي ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء»^(٢).

وإقبال في آخر ديوان له وهو "أرمغان حجاز" أي هدية الحجاز الذي نشر بعد وفاته وفيه آخر أفكاره، نجده ينقد التصوف نقداً لاذعاً لدعوته إلى الرهبانية وترك الحياة، ويعده سر تخلف المسلمين.

يقول إقبال حسب ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم للديوان ثراً:

«متاع الشيخ ليس إلا أساطير قديمة،

(١) السكر: من أحوال الصوفية، فيه يغيبون عن الوعي ويزعمون الفناء في الذات الإلهية.

(٢) ديوان الأسرار والرموز - المقدمة - ص ١١ إلى ١٢.

كلامه كله ظن وتخمين،
حتى صار إسلامه زناراً،
وحين صار الحرم ديراً أصبح هو من براهمته»^(١).
ويبين إقبال في هذا الديوان أن اتجاه المسلمين إلى طريق التصوف
والالتهاء إلى مقامات الأولياء كان في عصور الضعف والذلة :
«اصطف الفقراء بالمسجد،
ومزقوا جيوب الملوك،
حين خبت تلك النار داخل الصدور
بدأ المسلمون يزحفون إلى المقامات»^(٢).
ويطلب إقبال التحرر من قيد الصوفي والملا^(٣):
«أنت أسير في قيد الملا والصوفي،
أنت لا تأخذ الحياة من حكمة القرآن.
ليس لك آيات القرآن شأن
إلا أن تموت بسهولة بسورة (يس)».
ويتهم إقبال من الصوفي والملا:
«فقد بلغوا رسالة الله،
لكن تأويلاتهم أوقعت في الحيرة»^(٤).

(١) محمد إقبال - وديوان «أرمغان حجاز» (مرجع سابق) - ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) المرجع السابق - ص ١٣.

(٣) يقصد إقبالاً بالملا : الشيخ القليل الفقه بالدين.

(٤) إقبال وديوان «أرمغان حجاز» (مرجع سابق) - ص ١٣٣.

ومع ذلك فإن إقبالاً بقي متشرباً بالفكر الصوفي الذي يدعو إلى إثبات الذات لا إفتنائها، والذي لا يخالف الكتاب والسنة. ويتمثل هذا الفكر في الشيخ جلال الدين الرومي^(١) الذي يعده إقبال أستاذة الروحي ومرشده إلى الحق. وقد اقتبس إقبال كثيراً من أفكاره وآرائه في الوجود والروح.

وتعدى ذلك إلى اقتباس منه الشعري، إذ إن أكثر قصائده في "زبور عجم" و"بيام الشرق" مكتوبة بأسلوب "المتنوي" للرومي^(٢).

وكذلك فإن ديوان "الأسرار والرموز" قد كتب في وزن وطريقة أسلوب "المتنوي" نفسه. وقد افتتح إقبال مقدمة "أسرار خودي" بأبيات من ديوان "شمس تبريز" للرومي:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى له في كل ناحية مجال
يقول: مللت أنعاماً وبههما وإنساناً أريد فهل يُنال^(٣)

ويصحب إقبال في ديوانه "جاويد نامة" الرومي^(٤) إلى الكواكب مرشداً وهادياً إلى السبيل، وكذلك في بال جبريل (جناح جبريل) في

(١) جلال الدين الرومي: جلال الدين محمد بن الحسين البلخي البكري، نظم المتنوي، وقد ترجمه عبد الوهاب عزام إلى العربية، وهو من كبار الصوفية، وإليه تنسب الطريقة المولوية في كل من تركيا وسورية (٦٠٤ - ٦٧٢هـ).

(٢) انظر «إقبال والرومي» لجناب سيد يونس شاه. وكذلك «إقبال وديوان أرمغان حجاز» (مرجع سابق) - ص ٤٧.

(٣) ديوان الأسرار والرموز - (مرجع سابق) ص ٢.

(٤) ديوان جاويد نامة - ترجم عدة ترجمات إلى اللغة العربية - انظر تفصيل ذلك عند البحث في دواوين إقبال.

قصيدة: المرشد الرومي والمريد الهندي^(١) يعترف إقبال بأن الرومي مرشد وفيلسوف.

ويلتقي إقبال مع الرومي في المفاهيم الآتية:

١- الإنسان الكامل.

٢- العشق.

٣- تحقيق الخلود.

٤- العلاقة بين الذات المزردة المقيدة والذات المطلقة.

ويعد الشيخ أبو الحسن الندوي ديوان «المتنوي المعنوي» للرومي من العوامل المؤثرة في تكوين عقلية إقبال وتوجيه رسالته، إذ كان إقبال يواجه نفس ما واجهه الرومي من طغيان العقل على الروح والعاطفة^(٢).

فإقبال واجه «التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحية والخلقية، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية والمبادئ الخلقية وما بعد الطبيعة، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية»^(٣). «وقد قضى إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان: عامل

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي - ص ١٠٢.

(٢) يقول الندوي: «كتب الرومي "المتنوي" في ثورة وجدانية ونفسية شديدة، ضد الموجة العقلية الإغريقية التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره، وقد انتصر فيها للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً، وانتصر فيها للعقل والروح، والحب الصادق، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية في الشرق الإسلامي» انظر روائع إقبال للندوي - ص ٥٢.

(٣) المرجع السابق.

العقل، وعامل القلب. وقام صراع بين عقله المتمرد وعمله المتجدد، وقلبه الحار الفائض بالإيمان. وفي هذا الاضطراب الفكري والاضطراب النفسي ساعده «المنهوي» مساعدة غالية، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً، وحل به كثيراً من ألغاز الحياة^(١).

٥- الأدب الإسلامي عامة والعربي خاصة :

درس إقبال العربية على يد أستاذه الأول سيد مير حسن^(٢)، وقد اشتغل بتدريس العربية مدة، وتمنى لو كان في قدرته أن ينظم الشعر بلغة الضاد، حتى يفهمه العرب، وينقل أفكاره لهم وبلسانهم. وفي ديوان «أرمغان حجاز» يدعو الله أن يهبه النطق العربي ليظهر به أسرار الروح. يقول إقبال حسب ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم:

«لقد فتحت الحياة على يمينه - أي المسلم -.

وبنيت له حكمة الأمس والغد،

فأعط هذا الأعجمي النطق العربي

لكي يستطيع أن يظهر بجلاء أسرار الروح»^(٣).

ولا عجب من دراسة إقبال اللغة العربية، إذ هي اللغة الجامعة للشعوب الإسلامية، ولغة القرآن، ولغة رسوله المصطفى ﷺ الذي امتلأ قلبه في حبه وحب أرضه التي داس عليها، وما على هذه الأرض من صحراء ونخيل،

(١) المرجع السابق.

(٢) سيد مير حسن: أستاذ اللغة الفارسية والعربية في مدرسة البعثة الأسكوتية في سيالكوت في عهد إقبال. (سيالكوت المدينة التي نشأ فيها إقبال وهي تقع في الطريق بين لاهور وإسلام آباد).

(٣) محمد إقبال وديوان أرمغان حجاز (مرجع سابق) - ص ١٩٣.

وواحاح وجمال وقوافل، وجبال ووديان، كل هذه المعاني صورها في شعره، وحنَّ إلى رؤيتها والعيش في ربوعها.

وقد تردد في شعر إقبال كثير من الشعراء الجاهليين، واستشهد بأشعارهم أمثال امرئ القيس^(١) وزهير بن أبي سلمى^(٢) وعمرو بن كلثوم^(٣).

وكذلك شعراء العصر الإسلامي أمثال كعب بن زهير^(٤)، وقيس بن الملوح^(٥) والمنتبي^(٦)، والمعري^(٧)، والبوصيري^(٨) وغيرهم.

ونعرض بعض النماذج الشعرية التي تأثر فيها إقبال بالشعر العربي عامة، وضمن قصائده أبيات شعرية كاملة من الشعر الجاهلي والإسلامي.

(١) امرؤ القيس: هو الملك أبو الحارث حندج بن حجر الكندي، من فحول شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات.

(٢) زهير بن أبي سلمى: شاعر جاهلي اشتهر بالمديح والحكمة، توفى قبل البعثة النبوية بسنة، وهو من أصحاب المعلقات.

(٣) عمرو بن كلثوم: هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي، شاعر جاهلي ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو من أصحاب المعلقات.

(٤) كعب بن زهير: هو كعب بن زهير بن أبي سلمى أحد فحول الشعراء المخضرمين، ومادح النبي الأمين في قصيدته التي اشتهرت بالبردة. توفى سنة ٢٤ هـ.

(٥) قيس: من الشعراء العذريين، اشتهر بالغزل العذري - عاش في العصر الإسلامي الأول.

(٦) المنتبي: هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي المنتبي الشاعر الحكيم وصاحب الأمثال السائرة - ولد ٢٠٢ هـ، وقتل عام ٢٥٤ هـ.

(٧) المعري: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي - الشاعر المعروف ولد بمعرة النعمان في سورية عام ٢٦٢ هـ، ومات سنة ٣٢٩ هـ.

(٨) البوصيري: هو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري المصري صاحب البردة والهمزية - (٦٠٨ - ٦٩٦ هـ).

ففي قصيدة لإقبال يبدأ فيها بيت من معلقة^(١) عمرو بن كلثوم يقول:

«صددت الكأس عنا أم عمرو

وكان الكأس مجراها اليمينا

فلو كان هذا طبع الصداقة

فحطى الكؤوس والأقداح بجوار الحرم»^(٢)

وامرؤ القيس يستخدم في شعره قنديل الرهبان يقول:

تضيءُ الظلامَ بالعِشاءِ كأنهُ منارةٌ مُمسي رَاهِبٍ متبيلٍ^(٣)

ويقول إقبال مستخدماً قنديل الراهب أيضاً:

«إن ليل هذا الجبل والوادي صدر مظلم،

ليس فيه طائر ولا موج ماء.

صار مضيئاً من قنديل الراهب

حتى كأنك تظن أنه الشمس».^(٤)

(١) المعلقة - هي قصائد شعرية طويلة، لعدد من شعراء الجاهلية، سبغ متفق عليها، وثلاث مختلف فيها، ومطلع معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

(٢) إقبال وديوان أرمغان حجاز (مرجع سابق) - ص ١٧٦. ويرمز إقبال بذكر الحرم إلى الهدى والإسلام.

(٣) يقول: تضيء محبوبتي الظلام كأنها منارة الراهب في المساء، والبيت من المعلقة المشهورة التي مطلعها: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٤) المرجع السابق - ص ٨٥.

ويقول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومن لا يذدَّ عن حوضِهِ بسلاحِهِ يهدمُ، ومن لا يظلمُ الناسَ يُظلمُ (١)

ويقول إقبال في ديوان «بس جه بايد كرد أي أقوام شرق» أي «ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق» ينصح العرب بالتخلص من عبودية الإفرنج: «لو أردت النجاة من خداعه فأبعد جماله عن حوضك».

والشاعر كعب بن زهير يقول في مدح الرسول ﷺ:

بانت سعادٌ فقلبي اليومَ متبولٌ متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ (٢)
إن الرسولَ لسيفٌ يستضاءُ بهِ مهندٌ من سيوفِ الله مسلولٌ

وإقبال في ديوانه "الأسرار والرموز" يقول حسب ترجمة عزام:

نظم الدرّ منيراً في ثناءه من سيوفِ الهندِ سيفاً قد دعاه (٣)
كعبُ الشاعرُ في خيرِ العبادِ أنشدَ المدحةَ من (بانت سعاد)

وفي ديوان «أسرار خودي» (أسرار الذات) يذكر إقبال البوصيري صاحب قصيدة البردة فيقول:

(١) الذود: هو الدفع. ومن لا يظلم. يريد به أن الناس طبعوا على ظلم من لا يقدر على الظلم، يعني من لم يدفع الظلم بمثله يظلم. وهذا مخالف للتصور الإسلامي، الذي يقرر أن الإنسان فطر على الخير والإيمان. ومطلع معلقة زهير هو:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدرّاج فالمتلّم

(٢) بانت سعاد: فارقت. متبول: الذي أسقمه الحب. ومكبول: مقيد.

(٣) ديوان الأسرار والرموز لعزام - ص ١٠٣.

واهبي عودَ سُليمي كَرَمًا والبوصيريُّ ببردٍ أُكْرَمًا^(١)

وسلمي، وسليمي معروفة في الشعر العربي، كثيراً ما يتغزل بها الشعراء، وإقبال في ديوانه "أسرار خودي" يمدح الأدب العربي ويدعو إلى التمسك بالإسلام فيقول:

من بفكرٍ صالحٍ في الأدبِ ارجعَنَّ يا صاحِ شطرَ العربِ
فَسُليمي العربِ يا صاحِ اعشَقنا لترى صبحَ الحجازِ اتَّلقنا
من حَرورِ البيدِ فاشربْ يا رفيقُ واشربَنَّ من تمرِها الراحَ العتيقُ^(٢)

ويورد إقبال بيتاً من البردة في ديوانه «رموز بي خودي» أي «رموز نفي الذات» وهو:

لما دعا اللهُ داعينا لطاعتهِ بأكرمِ الرُّسلِ كنا أكرمَ الأممِ

في مقدمة حاشية قصيدته «الرسالة» والتي فيها هذان البيتان:

ختمَ اللهُ علينا شِرعتهِ وعلى المرسلِ فينا بعثتهِ
محفلُ الأيامِ منا يبسمُ خُتِمَ الرُّسلُ بنا والأممُ^(٣)
ويقول البوصيري في البردة:

(١) المرجع السابق - ص (١٥١) عود سلمي: يراد به قوة العرب في الأدب والشعر، البوصيري:

ناظم قصيدة البردة الشهيرة.

(٢) المرجع السابق - ص ٣٦.

(٣) المرجع السابق - ص ٩٧.

أحلُّ أمتَهُ في حَرزِ ملتهِ كالليثِ حلَّ مع الأشبالِ في أجَمِ (١)

فأشار إليه إقبال في " روموز بي خودي "

أمةٌ في حَرزِ سورِ الحرمِ في حفاظِ مثلِ أسدِ الأجمِ (٢)

ومن الشعراء العرب الذين ذكرهم إقبال في شعره قيس بن الملوح، شاعر الحب العذري الذي هام بابنة عمه ليلي، وقد وظف إقبال الصورة الشعرية لقيس وهيامه بابنة عمه توظيفاً جديداً، يخدم فكرته ورسالته الإسلامية.

فمثلاً حينما يصف الحياة المعاصرة وخلوها من القلب والعاطفة، نراه ينوح كما ينوح قيس حين يخلو المحمل (٣) من ليلي:

صدرٌ عصري ما بقلبٍ يؤهلُّ نوحُ قيسٍ حين يخلو المَحْمَلُ (٤)

وفي صورة أخرى يبين واقع المسلمين، وعدم نهوضهم بالعمل، ليصلوا إلى هدفهم وذلك بعرض صورة قيس الطائف بالصحراء يبحث عن ليلي:

طافَ قيسٌ في الصحارى ولها قاصداً ليلاهُ يرجو وصلها

ما اقتفينا في الصحاري أثراً منذُ ليلانا أقامت في القرى

إنما المقصودُ روحُ العملِ كيفهُ والكمُّ منه تجتلي (٥)

(١) الحرز: الموضع الحصين - الأجم: مفردها أجمة وهي مسكن القصب.

(٢) المرجع السابق - ص ٩٦.

(٣) المحمل: الهودج يوضع على الجمل لتركب فيه النساء.

(٤) المرجع السابق - ص ٨٨.

(٥) المرجع السابق - ص ١٢٥ - ١٢٦ تجتلي: تتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده.

ويصور إقبال في ديوانه (رموز بي خودي) المسلم العاجز، وقد ملأ اليأس قلبه، بينما الآخرون بلغوا أهدافهم في التقدم والرقي، مستخدماً صورة قيس التائه في الصحراء يبحث عن ليلي عاجزاً يائساً:

بَلَّغَ السَّعْيِ الرَّفَاقَ الْمَنْزِلَا أَنْزَلُوا لَيْلَى وَحَطَّوْا الْمَحْمَلَا
وَبَقِيَتْ الْيَوْمَ قَيْسًا مُبْلِسًا فِي الصَّحَارَى عَاجِزًا مُسْتَيْئِسًا^(١)

وإقبال في "جاويد نامة" أي "رسالة الخلود" نجده متأثر بشكل عميق بوقائع إسلامية وأعمال أدبية إسلامية وعربية ليس في المضمون، فالمضمون إسلامي لا شك في ذلك.. ولكن بالصورة الفنية المعبرة.. والقالب الفني الجميل.

ثانياً: المصادر الغربية:

١ - الفلسفة اليونانية:

إن اطلاع إقبال على الفلسفة الغربية، وجدورها الأولى في الفلسفة اليونانية أمر لا شك فيه ولا غرابة؛ لأن طالب الفلسفة لابد له أن يطلع على تاريخ الفلسفة في جميع العصور، وأن يطلع على جميع الحدوس الفلسفية، في الكون والإنسان والحياة، ولكن هذا لا يدعو إلى القول بتأثير إقبال بالفلسفة اليونانية. وإن تشابه بعض التعابير، أو الأفكار عند فيلسوفين ليس دليلاً على تأثر أحدهما بالآخر.

فقد رأى بعض الباحثين^(٢) أن هناك شبهاً بين الإنسان الكامل عند

(١) المرجع السابق - ص ١٢١.

(٢) انظر: THOUGHTS & REFLECTON IQBALS.A.WAHID. SH.M.ASHRAF-

إقبال، والإنسان الكامل عند أرسطو طاليس^(١)، وذلك من خلال تشابه بعض العبارات بينهما، فمثلاً يقول أرسطو طاليس:

إنه يجب أن يكون (أي الإنسان الكامل) في خدمة الناس، ورغم هذا يكون خجلاً حين تؤدي إليه خدمة، ويقول إقبال: «الحدْر من منّة الغير، الحدْر».

ويقول أرسطو طاليس: «إن شجاعته رزينة مرضية، صوته عميق، حديثه موزون»، ويقول إقبال: «رقيق في حديثه قوي في عمله».

هذه هي العبارات التي تشير إلى تأثير إقبال بأرسطو طاليس عند من درس إقبال، وهي لا تدل لا من قريب ولا من بعيد إلى ذلك.

مع العلم أن إقبالاً اقتبس تصوره عن الإنسان الكامل من التصور الإسلامي، ويشير دائماً إلى أن المسلم هو الإنسان الكامل، وإن صفات الشجاعة والاعتزان والرصانة والصوت الموزون ورقة الحديث وقوة العمل، قيم إسلامية أشار إليها الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة^(٢).

٢ - جوته: (١٧٩٦ - ١٨٢٣م):

أعجب إقبال بجوته الشاعر الألماني وبأفكاره، بعد مطالعة ديوانه «ديوان المغرب» الذي ألفه قبل مئة عام من نشر إقبال لديوانه "بيام مشرق" أي "رسالة المشرق"^(٣).

(١) أرسطو طاليس فيلسوف يوناني (٢٨٤ - ٣٢٢ ق.م) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية - يوسف كرم.

(٢) قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «أحسن الناس إسلاماً أحسنهم خلقاً» رواه الطبراني وأحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات. وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق» رواه مسلم. والأحاديث في هذا الباب كثيرة - ارجع إلى شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنة للدكتور: محمد علي الهاشمي. وبعض هذه الصفات في القرآن الكريم كما في وصايا لقمان عليه السلام لابنه.

(٣) تعريب الدكتور عبد الوهاب عزام.

إذ إن جوته فضل القلب على العقل، وحاول التوفيق بين أفكار الشرق وأفكار الغرب، وتقد الغرب الذي فقد قلبه روحانيته وإنسانيته، وانغمس في المادة، ومدح الشرق وروحانيته وما فيه من أخلاق إنسانية. ودعا شعوب الشرق بعدم الانخداع بالغرب، وبمعرفة ذاتها والتمسك بدينها وروحانياتها.

وقد كتب جوته في أعلى الديوان الآية القرآنية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ (البقرة: ١١٥).

وبعد مطالعة إقبال لديوان جوته ينظم ديوانه، «بيام مشرق» الذي كتب تحت عنوانه: «جواب ديوان الشاعر الألماني جوته» يؤكد كثيراً من أفكاره. وكتب في مقدمته الثرية: «نظمت (بيام مشرق) لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه: «هذه باقة من القصائد يرسلها المغرب إلى المشرق». ويتبين من هذا الديوان أن المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صور المشرق»^(١).

ويظهر من هذا الديوان أيضاً أن إقبالاً قرأ قصة «فاوست» لجوته أيضاً، وقد أشار للقصة في مقطوعة له في «بيام مشرق» عنوانها «جلال وجوته» وكتب في الحاشية: «شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة «فاوست»^(٢)، وفي هذه القصة بين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطار من رواية قديمة عن العهد الذي كان بين الدكتور فاوست والشيطان، وقد بلغ فيها الفن درجة لا يدركها الخيال»^(٣).

(١) «بيام مشرق» - ديباجة ص ١، وقد ترجمها عزام إلى العربية، انظر رسالة المشرق ص ١.

(٢) «فاوست» نقلها من الألمانية إلى العربية محمد عوض محمد - طبع مصر سنة ١٩٢٩ م.

(٣) «بيام مشرق» - ص ٢٤٦، وانظر الترجمة العربية.

ولكن هل تأثر إقبال في ديوانه جاويد نامة بفاوست؟ يقول راشد الحيدري في مقاله محمد إقبال والثقافة الألمانية:

«وكان تأثير فاوست في روح إقبال أعمق مما كان تأثير كتاب من الأدب الأوروبي، وظن أن هذا الكتاب الشهير: يصور المثل الأسمى للهمم الروحية التي تختص بها الملة الألمانية، وأنه أقرب إلى الروحانية من الإنجيل»^(١).

والواقع أن إقبالاً لم يتأثر بـ «فاوست» من حيث المضمون أو الموضوع، سوى بعض المشاهد من حيث القالب الفني فقط.. ونحن مع الدكتور محمد السعيد جمال الدين حيث يقول:

«والواقع أننا إذا أمعنا النظر في هذا القول فسنجد الحيدري يقول: «إن إقبالاً تأثر عن طريق جوته بالنبي ﷺ وهذا رأي غير مقبول، فمن المعروف أن تأثر إقبال بالنبي هو تأثر مباشر، وأن جوته نفسه تأثر في كثير من آرائه بالأدب الإسلامي، فالفكرة إسلامية وليست أجنبية، ولا يستقيم أن نقول: إن إقبالاً استقى أفكاراً إسلامية من مصادر غربية»^(٢).

٣ - ليبنتز^(٣):

يرى الدكتور مهدي علام أن إقبالاً يوافق ليبنتز - الفيلسوف الألماني -

(١) مجلة «فكر وفن»، العدد الثاني، العام الأول، ١٩٦٣م.

(٢) رسالة الخلود أو " جاويد نامة " لإقبال - ص ٤٨.

(٣) ليبنتز: جوتفريد فلهام (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) فيلسوف ألماني - وكان رياضياً وعالمًا من

الطراز الأول. قال بالجواهر الفرد أو الموناد أو الجوهر الروحي - انظر تاريخ الفلسفة

الحديثة - يوسف كرم - ص ١٢٣ - ١٢٤.

عندما قال " بالموناد " أو الجوهر الروحي، وأن كل موجود حي، وليس بين الموجودات من تفاوت في الحياة إلا بالدرجة تبعاً لمبدأ الاتصال الذي يستبعد الانتقال الفجائي، وهذا التفاوت بالدرجة هو بحسب درجة تميز الإدراك. والدرجات أربع: مطلق الحي، أي ما يسمى جماداً، والنبات، فالحيوان، فالإنسان^(١).

يقول إقبال: «كيف تنشأ النفس في داخل النظام الزماني، والمكاني؟ إن تعاليم القرآن واضحة كل الوضوح في هذا المعنى إذ يقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (المؤمنون).

وهذا «الخلق الآخر» للإنسان يتكامل على أساس الجسم المادي، وهو مجموعة من وحدات روحية، بواسطتها تؤثر في دوماً روح أعمق فتمكنني من بناء وحدة من التجربة منسقة»^(٢).

ويقول إقبال أيضاً معرفاً المادة «هي طائفة من نفوس أو ذرات دنيا، تتوالد عنها نفس أو ذات أعلى رتبة، عندما يبلغ ارتباط هذه الأنفس وتفاعلها درجة معينة من التناسق»^(٣).

(١) انظر تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال - هامش ١١٩ - وتاريخ الفلسفة الحديثة - ص ١٣٤.

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال - ص ١١٩.

(٣) المرجع السابق - ص ١٢١ - ١٢٢.

يقول الدكتور مهدي علام: «يبدو في هذا القول، تأثير ليبنتز في إقبال قوياً، فالجوهر الفرد أو المونادا عند ليبنتز قوة متجهة إلى الفعل بذاتها حاصلة على التلقائية، أو هي حياة ونزوع، ولها ضرب من الإدراك»^(١).

والذي أراه أن إقبالاً أخذ نظريته هذه من القرآن، وليس من ليبنتز، وقد التقى معه في تفسير المادة فقط. مع العلم أن «ليبنتز» أخذ بعض آرائه من النصرانية، وأصول الدين النصراني إلهي وليس وثنياً... وتلتقي النصرانية مع الإسلام في أصول الدين، أما الآيات القرآنية التي تشير إلى وجود الروح والإدراك في المادة، أو أن المادة مؤلفة من ذرات روحية فيمكن أن نذكر منها ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٤).

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢).

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ (الرعد: ١٣).

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

والآيات في الموضوع كثيرة.

(١) انظر هامش المرجع السابق - ص ١٢١ - وكذلك تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم

- ص ١٢٢ - ١٢٤.

(٢) انظر تفسير ابن كثير - والآثار النبوية في هذا الباب.

٤ - نيتشه^(١):

رأى بعض الباحثين أن إقبالاً متأثراً إلى حد كبير بنيتشه في نظريته عن الإنسان الأعلى «السوبر مان». ويقول آخر^(٢) «إن كل من تعمق في دراسة فكر إقبال لاحظ تأثير نيتشه على فكره، كما أن إقبالاً كان يردد اسمه حتى عام ١٩١٨ م، أما أن إقبالاً متأثراً بنيتشه في نظرية الإنسان الكامل فقد رد هو بنفسه على هذا القول في رسالته إلى نيكلسون فيقول:

«لقد علمت من الخطاب الذي كتبه إليّ شفيع^(٣) ما سرني وأثلج صدري، فقد لاقت ترجمة «أسرار خودي» الإنكليزية رواجاً وترحيباً، إلا أن بعض الإنكليز قد أسأؤوا الفهم، وقالوا بتشابه أفكاري وأفكار نيتشه، فهناك فرق بين نظريتي عن الإنسان الكامل وأفكار نيتشه عن «السوبرمان» إلا أنه لسوء الفهم خلط بعضهم بينهما، وجعلوهما نظرية واحدة، لقد كتبت مقالاً قبل عشرين سنة عن «الإنسان الكامل» ويومها لم أكن قد سمعت عن نيتشه ولم أر مؤلفاته، ولقد أضفت هذا المقال إلى بحثي المقدم للدكتوراه «فلسفة عجم» وعنوانه «تطور ما وراء الطبيعة في إيران»^(٤).

(١) فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) فيلسوف ألماني، وهو أديب مطبوع حشر في زمرة الفلاسفة لأنه فكر وكتب في الإنسان ومصيره والأخلاق وقيمتها، وأخذ أركان مذهبه من شوبنهاور وفاجنر. ونظرية العود الأبدية معروفة في الثقافة اليونانية (انظر تاريخ الفلسفة الحديثة - يوسف كرم - ص ٢٨٥ - ٢٩١).

(٢) هو الدكتور ظ - أنصاري في (إقبال كي تلاش) ص ٦٢ - ٦٣.

(٣) الأستاذ محمد شفيع كان عميداً للكلية الشرقية بلاهور.

(٤) ارجع إلى: محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره - د. عزام - ص ٧١.

فضلاً عن أن مواصفات «الإنسان الكامل» عند إقبال تختلف عن الإنسان الأعلى أو السوبرمان عند نيتشه. فالإنسان الكامل عند إقبال يشرحها الأستاذ الندوي في كتابه الرائع «روائع إقبال» فيقول:

«إن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً شابهه طاهر نقي، ضربه موجع قوي، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء، آماله قليلة، ومقاصده جليلة، يجمع بين جلال إيمان الصديق، وقوة علي، وفقر أبي ذر، وصدق سلمان، يصطاد الأسود، ويباري الملائكة، ويتحدى الكفر والباطل»^(١).

وهذه الصفات كلها مقتبسة من القرآن، وسنة النبي ﷺ، وسيرة الصحابة رضي الله عنهم.

ويقول الندوي: «إن محمد إقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد الإنسان المنشود، وعرفه واتصل به، وتغنى في شعره بإنسانيته وشخصيته.

إن الإنسان الكامل الذي وجده إقبال، فوجد فيه ما كان ينشده من معاني الإنسانية والقوة والحياة والجمال والكمال هو المسلم، فهو الضالة المنشودة، والصورة الكاملة للإنسانية»^(٢).

فأين هذا من الصورة التي يرسمها نيتشه للإنسان الأعلى (السوبرمان)؟، فهو يحب الخطر والاضطراب والصدقة والقدرة والذكاء.

(١) روائع إقبال للندوي - ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) المرجع السابق - ص ٨٠ - ٨١.

وبالنسبة للمقاصد الخلقية يحب الحرية والعمل، وهو معجب بنفسه، معتر بكرامته، ولكن من دون مبدأ أخلاقي، وإنسان نيتشه لا يعلم بقوانين المساواة والعدل، ولا يعرف معنى الرحمة والشفقة، فضلاً عن إلحاده باللّه تعالى.

أما فلسفة الذاتية عند إقبال فهي فلسفة إسلامية خالصة، ليست مقتبسة من نيتشه ولا من غيره.. كما بين ذلك إقبال في رسالته إلى نيكلسون، بل إن إقبالاً يعترض على نيتشه في كثير من آرائه، يقول إقبال: «أرى أن الحقيقة هي مجموعة الشخصيات أو الذاتيات، وأن تأليفها الاجتماعي ينشأ من الجلال، ومن هذا الجلال^(١) ينشأ انتظام وائتلاف آخر. هذا الجلال ضروري للبقاء الشخصي وهو أعلى درجات الحياة.

نيتشه ينكر البقاء الشخصي، وغلطه في هذا نتيجة غلطه في تصور الزمان أو الدهر، هو لم يبحث في مسألة الزمان من الجانب الإنساني.. وأنا على خلافه أعتقد أن البقاء الشخصي أعظم الآمال، ولا بد له من الجهد الكاملين، لهذا دعوت إلى الحركة والجد والكدح وكل ضروب العمل، بل الحرب، حتى تستحكم الذات، ولهذا نهيت كل النهي عن جمود الصوفية وسكون الرهبان»^(٢).

(١) الجلال: من الجلد: أي الصلابة. وفي ترجمة أخرى للرسالة ذكر المترجم كلمة الصراع أو

النزاع (انظر د. سمير عبد الحميد إبراهيم - دراسة ديوان الأسرار والرموز).

(٢) ديوان الأسرار والرموز - لغزام - ص ٢٥.

٥ - برغسون^(١):

يتفق إقبال مع برغسون في نقطتين:

الأولى: تتعلق بالمعرفة، وهي أن الحقائق لا يصلها الإنسان إلا عن طريق الإلهام أو الحدس أو البدهاة، وهو المعرفة المباشرة.

والثانية: في مفهوم الزمن، وأنه حقيقة مستقلة.

أما النقطة الأولى والمتعلقة بالحدس كطريق للمعرفة، فقد سبق الغزالي وجلال الدين الرومي برغسون في هذا، وحتى الفيلسوف الألماني كنط^(٢) قال بعدم استطاعة العقل الوصول إلى الحقائق بما وراء الطبيعة، يقول إقبال:

«على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التي نهض لها الغزالي تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها كنط في ألمانيا في القرن الثامن عشر»^(٣). هذه الدعوة تتجلى بقصور العقل الإنساني في الوصول إلى الحقائق الدينية، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلي من قبل، وصدق عليه القول بأنه من أجل نعم الله على وطنه^(٤).

(١) هنري برغسون (١٨٥٩ - ١٩٤١م) فيلسوف فرنسي، ولعله أكبر فيلسوف في النصف الأول من القرن العشرين، يقوم مذهبه على أن الصيرورة أو التغيير هو الحقيقة الوحيدة (انظر تاريخ الفلسفة الحديثة من ٤١٧ - ٤٧٧ والموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١١).

(٢) أمانويل كنط (١٧٢٤ - ١٨٠٤م) فيلسوف ألماني له أثر عظيم في الفلسفة الحديثة أو الأخلاق، امتاز مذهبه بنقد العقل وبيان قصوره وهو القائل: «شيئان يملآنني إعجاباً؛ السماء ذات النجوم فوق رأسي والقانون الخلقى في نفسي» (انظر الفلسفة الحديثة - يوسف كرم ١٩٥ - ٢٤٥).

(٣) تجديد التفكير الديني في الإسلام - لإقبال - ص ١١.

(٤) المرجع السابق - ص ١١ أيضاً.

ويتفق إقبال مع برغسون بأن الحدس والعقل، ليسا طريقتين متضادتين إلى المعرفة، بل هما يكملان بعضهما بعضاً. يقول إقبال:

«وليس هناك من سبب يدعو إلى الظن بأن الفكر والبداهة متضادان بالضرورة، فهما ينبعان من أصل واحد، وكل منهما يكمل الآخر، فأحدهما يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً، والآخر يدركها في جملتها، كلاهما يفتقر إلى الآخر لتجديد قواه، وكلاهما شهود نفس الحقيقة التي تكشف كل منهما على نحو يتلاءم ووظيفته في الحياة، وفي الحق أن البداهة - كما يقول برغسون - ليست إلا ضرباً عالياً من التفكير^(١).



(١) المرجع السابق - ص ٧.